



كلنا نتوق بشغف إلى تعديل الأوضاع «المائلة» للبيت الذي بجوارنا.

كلنا نسعى جاهدين لإصلاح أحوال إخواننا وجيراننا وأقاربنا وزملائنا في العمل، بل وحتى المشاة في الشوارع نود لو نستوقفهم لنقول لهم عن العيب الذي رأيناه فيهم.

نريد أن نصلح خدمات الحي الذي نسكنه ومؤسسات الدولة التي ننتمي إليها ومنظمات الكون الذي نعيش فيه.

كلنا منشغلون بإصلاح هذا العالم الكبير، إلى درجة أننا منشغلون بهذا الهم عن إصلاح عالمنا الصغير.. أنفسنا!

نقرأ الآية الكريمة: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْيِرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يَغْيِرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ»، لكننا نفهمها هكذا: حتى يغيروا ما بغيرهم!

نقرأ المقالات المؤثرة ونسمع الخطاب الرنانة لأولئك الذين يتطلعون إلى نهضة الأمة من كيوتها وإصلاح فسادها، لكن لا تفتض عن السلوكيات الشخصية للكاتب أو المتحدث، إذ لن تجد فيها ما يشي بأنه إنسان نهضوي/ إصلاحي حقيقي.

أيها النهضوي/ الإصلاحي:

كيف تريد من الأمة/ الدولة أن تقيم مبادئ العدل والمساواة وأنت لا تقييمها في بيتك وعملك، ولا تربى أبناءك عليها؟

كيف تريد من الأمة/ الدولة أن تكون صادقة معك ولا تغشك بقراراتها الملتوية ثم تبيع لنفسك أنك أن تغش من استطعت في بيع أو شراء.. وتسمى ذلك شطاره؟!

كيف تريد من الأمة/ الدولة أن تعمل بجد وصدق من أجل النهوض بالبلاد فيما أنت لا تعمل بجد وصدق من أجل النهوض بالمؤسسة التي تعمل فيها، ولا حتى بالأسرة الصغيرة التي أنت قائدتها؟!

من هي الأمة/ الدولة؟

هل تعلم أنها هي أنت وأبناؤك وإخوانك وجيرانك وأصدقاءك؟

اشتغل على هؤلاء فقط، وسترى كيف تكبر النتائج.

كتب أحد رهبان القرن الحادى عشر واصفاً حاله مع التغيير يقول: «عندما كنت مراهقاً سعيت بمجهوداتي التي كانت في بعض الأحيان غير معقولة ولا عقلانية إلى تغيير العالم بأسره، وحينما صرت شاباً ناضجاً لم أدخل وسعاً في سبيل تغيير مدينتي، ثم حين كبرت حاولت جعل أسرتي أفضل، أما عندما هرمت فلم يبق لي سوى استكمال نفسي وحدها، شاعراً بأنني لم أستطع بلوغ أي شيء من الهدف المرسوم، وحينئذ أدركت أنني بتغيير نفسي في أعوامى الباكرة كنت بذلك نفسيه سأغير أسرتي أيضاً، وهي بعد أن تغدو أفضل سيكون بوسعها استكمال المدينة التي نعيش فيها، وهذا بدوره سيرفع العالم بأسره أيضاً إلى درجة جديدة من النقاوة والطهر والكمال».

بمثل هذه الحكاية الرهبانية يهدى الكثير منا حياته في مساع نبيلة غير ناجحة، لأن نبلها ناقص ومشوه وفي التوقيت الخاطئ أو الموضع غير الملائم بسبب ارتباك الأولويات. هذا لا يعني أن نتوقف عن قول الحق أو نقد الأخطاء حتى تحول إلى ملائكة خالين من العيوب. لكن يجب أن نفطن إلى أننا لا نستطيع إصلاح جماعة أفرادها فاسدون.

«النهضة» إذا أردتها، يجب أن تبدأها منك أنت ثم تنتهي بها عند غيرك، لا أن تبدأها عند غيرك.. وتجعل نفسك أول من يدعوا وأخر من ينهض!

الحياة

المصادر: